

الشيعة العرب

عرب الرنداوي

ما كان لإيران أن تحظى بكل هذا النفوذ في أوساط الشيعة العرب، لو أن حكومات ما بعد الاستقلالات العربية، نجحت في بناء دولة المواطنة الفاعلة والمتساوية، دولة جميع أبنائها وبناتها، دولة جميع مكوناتها وكيانها ... فشل الدولة الوطنية العربية الحديثة، كان سبباً رئيساً في تحول قطاعات واسعة من الشيعة العرب إلى "رؤوس جسور" للنفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة.

ما ينطبق على الشيعة العرب، ينطبق بقدر أكبر أو أقل، على مكونات أخرى، فلو أن أكراد المنطقة جرى إدماجهم في دولهم ومجتمعاتهم، على قاعدة الاعتراف بمواطناتهم وحقوقهم الوطنية كأقلية قومية، لأمكن توفير الكثير من الدماء والدمار في حروب عبيدية، ولما تفاقم الميل الانفصالي عند غالبيتهم الساحقة، ولما تحول بعضهم إلى رأس جسر أيضاً للنفوذ الإقليمي في المنطقة، ولما تفاقمت الخشية من "إسرائيل ثانية" كما يردد البعض مذماً محقاً أو متطرفاً.

لا تستطيع حكومة أي دولة من دول الانتشار الشيعي في العالم العربي، أن تزعم بأن هذه الفئة من مواطنوها كانوا يعاملون بالسوية ذاتها مع بقية المكونات والمواطنين الآخرين ... فالظلمومة الشيعية أكبر من أن تعطى في ظل الحقائق التي استبطنتها مئات الأبحاث والتقارير وألوف التغطيات الصحفية، عن "المحروميين" في لبنان مثلًا مورراً بعمليات العزل والإقصاء والسوقوف الخفيفة التي ظل هؤلاء يمارسون حياً تهم تحتها.

ولا يمكن القبول بنظرية أن "المستبد العادل" وزع استبداده بالقسطاس بين مختلف المكونات التي تشكل مجتمعتنا، فالقول على سبيل المثال، إن صدام حسين على سبيل المثال، كان ديكاتوراً على الجميع بلا استثناء، لا يلغى حقيقة أن حصة الشيعة العراقيين من جبروته، لا يعادلها سوى حصة الأكراد منه ... صحيح أن أهل السنة من عرب العراق، لم يسلموا من طغيانه واستبداده، لكن الصحيح كذلك أن حصة هذين المكونين من عقوباته الجماعية، كانت الأكبر والأفدح.

إلى أن وصلنا إلى الانقسام المذهباني الأخطر في المنطقة، أو "الشيخ القاري" الذي قسمها إلى شطرين متصارعين في سنوات العربي السبع الفائتة، هنا جرى الزج بمكونات اجتماعية إضافية لاراتمامه في الحصن

الإيراني، من خطاب الكراهية ضد علوبي سوريا، وانتهاء بحرب علي عبد الله صالح المست ضد الحوثيين. اليوم، خرج "المارد الشيعي من قمقمه" على وقع الهزائم التي منيت بها الولايات المتحدة والفراغ الذي تركته في العراق من جهة، وتنامي نفوذ حزب الله في لبنان والإقليم بعد حرب التحرير في 2000 وعدوان تموز في 2006، فضلاً عن هزيمة المحور "السنوي" المدعوم أمريكيًا في سوريا، وتطورات اليمن. بعض رموز الشيعة العرب، أخذوا يتذمرون من النفوذ المهيمن للمدرسة الإيرانية، مدرسة ولية الفقيه، في أوساطهم،رأينا حالات تمرد على الثنائي الشيعي (حزب الله وأمل) في لبنان، ورأينا ميلادً استقلالياً جارفاً عند رجل السياسة والدين مقتدى الصدر، ورأينا انتباش تيار الحكم على حساب المجلس الأعلى، ونرى شروخاً داخل الدعوة بين المالكي والعبادي، ونستمع لأصوات من هنا وهناك، تعبر عن ضيقها بمصادر الهوية الوطنية الخاصة للشيعة العرب، ومحاوله فرض مدرسة واحدة وقراءة واحدة عليهم جميعاً، هي المدرسة الإيرانية وقراءة الولي الفقيه...

وهناك أصوات تخشى على مستقبل الشيعة من مسلسل الانتقام المتبادل الذي يطل برأسه من بين ثنيات التطورات والأحداث التي تشهدها دولنا ومجتمعاتنا بتسارع لافت.

مثل هذا الميل، يعيّد التذكير بأن أصل التشيع، عربي بامتياز، وهو سابق لتحول إيران في عهدها المفوي نحو هذا المذهب، ويعيد التذكير بالتبين حتى لا نقول بالانقسام، بين المدرسة العربية والمدرسة الفارسية في التشيع ... وهو تباين يتلخص كلما نظرت الحكومات والفاعلين الاجتماعيين للشيعة العرب بوصفهم رعايا لا مواطنين، وتتسع حدته كلما تكرر مفهوم المواطننة المتساوية ودولة المواطننة المدنية الديمقراطية في عالمنا العربي.

* عريب الرنتاوي كاتب صحفي أردني

المصدر | الدستور الأردنية